المعتصمون الخمسة في ساحة الشهداء امس (علي علوش)

«مارسوا الحب لا الحرب.. إيه.. مارسوا الحب»

بدت سمنته عائقا مزعجا في طريقه إلى المعتصمين الخمسة. كان يمشي بسرعة صوبهم وقد صاروا في آخر الساحة الواسعة المفروشة بالبحص والتي تعرف بساحة الشهداء في وسط بيروت. راحوا يتحزرون.. «منا أو منهم؟» ليس هناك من احتمال ثالث.. هو إما معتصم تأخر قليلا عن موعد الاعتصام الذي بدأ عند الحادية عشرة والنصف من صباح أمس بخمسة أشخاص، وإما عسكري بثياب مدنية..

وصل إليهم وهو يقول لهاتفه الخلوي: «إيه وصلنا.. وصلنا.. رح نحكي معون». من أنتم؟ ماذا تفعلون هنا؟ قال للمعتصمين الخمسة. أجابته السيدة الخمسينية بينهم بما معناه أن من أنت.. مخابرات بالطبع.. أصرت فإذا به يخرج محفظته الجلدية من جيبه ويفتحها على بطاقة زرقاء وضع كفه عليها فاختفت تحته ما عدا عبارة «الجمهورية اللبنانية». حسنا.. هم هنا ليعتصموا ضد الحرب.. وحدهم.. من دون أي جهة سياسية.. أسماؤكم. أعلنت السيدة الخمسينية عن اسم مستعار. عاد إلى هاتفه الخلوي يقول له إنهم لا ينتمون إلى أي جهة سياسية وإنهم انتظموا وحدهم ثم راح يعالج بيده الثانية اللافتات لينقل مباشرة المكتوب عليها: «ليك.. مارسوا الحب لا الحرب». لا نعرف ما كانت ردة فعل الصوت على الهاتف لكنه دفعه إلى إعادة النصف الأول من الشعار: «إيه... مارسوا الحب».. وأكد «الحب».

غض الطرف عن لافتتين كتبتا بالإنكليزية والفرنسية وقفز إلى واحدة كتب عليها بالعربية: «مع السلم، مع الحب». كان زملاؤه قد وصلوا وراحوا يدردشون مع المعتصمين.. ثلاثة من المخابرات مع خمسة من المعتصمين.. مع دركي ودراجة نارية.. مع محررين ومصور صحافي.. إنه أصغر اعتصام مكتمل العناصر في تاريخ الدولة اللبنانية.. لا ينقصه إلا عنصر من الدفاع المدني يحمل في يده زجاجة مياه بدلا عن سيارة الإطفاء ليرش المعتصمين بالمياه من الزجاجة إذا ما شاغبوا.. آه. نسينا أن نذكر أن أمس هو ١٣ نيسان.. ذكرى اشتعال الحرب اللبنانية وقد جاء الخمسة ليعتصموا تحت شعار محفز: «مارسوا الحب لا الحرب»... خمسة وحسب؟ حسنا.. إما إن اللبنانيين نسوا الحرب.. وإما إن ممارسة الحب ما عادت تعنيهم.

لا. اللبنانيون لم ينسوا الحرب.. لكن نور مرعب لم ينجح في تحركه.. نور مرعب الذي بدأ اعتصام الثانويين سابقا وأتى تحركه مردوده الإيجابي إعلاميا.. نور هو الذي ذهب ومعه شقيقته وثلاثة اصدقاء إلى ساحة الشهداء واعتصموا.. ومع أنه كان من المفترض بالاعتصام أن يجمع نحو خمسين شخصا، إلا أن المحصلة وقفت على خمسة معتصمين وثلاثة عناصر مدنيين أحدهم ملتح تكاد تظنه ينتمي إلى حزب متدين.. ثلاثة عناصر قلنا؟ لا. ما قد ارتفع عددهم. فقد وصلت إلى المكان سيارة ثانية نزل منها بضعة رجال بدت الأهمية على واحد منهم يضع نظارات شمسية، ما إن اقترب من المجموعة حتى أدى له الشاب السمين التحية.. لم يكن الرجل بالنظارات الشمسية عابسا تماما.. إلا أنه كان شديد الثقة بنفسه.. ماذا تفعلون، ومن أنتم، وغيرهما من الأسئلة تعاون على الإجابة عنها «نور» وتينا نقاش (السيدة الخمسينية) قبل أن يتطوع نور ليلقي على الرجل ذي النظارات الشمسية عظة في حقوق الإنسان وحق التظاهر وغيرها بينما هذا يضع نظره في الأرض وقد ارتفعت شفته العليا عاليا تعبيرا عن نفاد صبره وعن عدم استماعه إلى كلمة مما يقول نور.. «هيدا الحكي للسياسيين.. ما تجادلني» قال لنور. هو يريد منهم أن يتركوا المكان.. ألا يقدر خمسة اشخاص على الاسترخاء تحت شمس الربيع؟ أنتم تحملون لافتات قال لهم. هذا ممنوع.. وشق طريقه بعيدا عن الحلقة التي صنعها المعتصمون والرجال المدنيون وراح يحكي مع الخلوي..

وبينما هو يحكي مع الخلوي.. تحدث رجل آخر يرتدي بدلة وربطة عنق مع نور.. التظاهر ممنوع أو غير ممنوع.. ذاك كان النقاش الذي أدى بالاثنين إلى الحديث عن غاندي. غاندي؟ هذا اصغر اعتصام مكتمل العناصر في تاريخ الجمهورية اللبنانية وهذا اول اعتصام، في تاريخ الجمهورية اللبنانية، يجري النقاش فيه حول حركة غاندي بين معتصم وعسكري.. رائع، أليس كذلك؟ انتظروا حتى تسمعوا البقية.. حين سأل الرجل ذو ربطة العنق نور إذا كان من دعاة اللاعنف قال نور: طبعا.. فعقب الملتحي: «إيه.. ومارسوا الحب كمان»، قالها مبتسما مشجعا.. لا شك في أن الفكرة تراوده عن نفسه.

لن نشهد حوارا أكثر لطفا من هذا بين طرفين لا يفهمان ابدا على بعضهما البعض.. الطرف الأول، نور، يُرفق كل عبارة من نقاشه بمادة من شرعة حقوق الإنسان يعرف رقمها، والطرف الثاني (الرجل بربطة العنق، اللحية، النظارات الشمسية، السمين) عليه أن ينفذ الأوامر.. كما هي.. بحذافيرها.. إنه الربيع وقد تغلغل في مشاعر الطرفين، المدني بشدة، والعسكري الذي لا يرتدي الأخضر.. إنه الربيع. المجد للربيع. المجد للربيع. المجد للربيع.

لكنه كان ربيعا قبل ٢٩ سنة حين اندلعت اللعينة.. كانت الناس تمارس الحب يومها ثم أضافت إلى هذا الجهد المبذول جهدا ثانيا حربيا.. من قال أصلا إن ممارسة الحب تتعارض مع ممارسة الحرب.. الحب والحرب نشاطان إنسانيان عتيقان لا نعرف اي نشاط منهما سبق الآخر لكننا نعرف أن التاريخ لم يعلن يوما عن أن أحدهما توقف بينما كان الثاني يمشي على قدم وساق. كان ربيعا قبل ٢٩ عاما وكان الطقس جميلا.. لكن الحرب أتت.. وفي ذكرى انطلاقة ممارستها طوال ١٥ سنة لم يتذكرها إلا خمسة في ساحة الشهداء ومعهم بعض من العسكر باللباس المدني..

أمس، جلس المعتصمون الخمسة بالقرب من زهور صفراء تنبت حيث تجد ترابا وربيعا.. زهور لا يبذرها أحد. كانوا ينتظرون فراغ الرجل ذي النظارات الشمسية من اتصاله الخلوي.. لم يطل الأمر به.. عاد إليهم. قال لهم إنهم يستطيعون الجلوس بالقرب من الورود.. لا مشكلة. كان قد تأكد من أن عددهم لن يزيد عن اصابع اليد.. هكذا سمح للاعتصام بأن يتابع تحت شمس ستتكفل بأن تجعل من اللافتات مظلات.. ولا حب ولا حرب.. ولا من يحزنون. وحدها الشمس ستضجر المعتصمين وتدفعهم إلى مغادرة المكان..

غادر الرجل بالنظارات وغادر خلفه رجاله.. واسترخى المعتصمون في الشمس..

شمسان: شمس الثالث عشر من نيسان ٢٠٠٤ هي نفسها شمس الثالث عشر من نيسان ١٩٧٥. لو ان الزمن يعود قليلا إلى الوراء.. إلى شمس ١٣ نيسان ١٩٧٥ حين اعتصم خمسة أشخاص لا نعرفهم.. رفعوا لافتة تقول: «مارسوا الحرب لا الحب».. خمسة كانوا لغاية في نفس يعقوب يريدون الحرب. لو أن الرجال بالثياب المدنية وصلوا يومها وطلبوا من الخمسة أن يتفرقوا فرفض هؤلاء.. فاتخذ الرجال قرارا بتفريقهم وجلبوا عنصر الدفاع المدني فرشهم بقنينة مياه فتفرقوا إلى حيث لا رجعة.. ولم تقع الحرب اللبنانية يومها.. ولم تقع أبدا بعدها.

غبي هذا الحلم.. غبي وتافه.. وجميل.

جهاد بزي